

## "صهيل الأسئلة" لرشيده الشاربي

## بين التوتر والصراع

مسعودة أبو بكر

تونس

أصبحت في يومي أسائل عن غدي متحيرا عن حاله متدنسا  
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

المعري

\* \* \*

مدخل.

"صهيل الأسئلة" (1) هذا المنجز الأدبي للقاصة رشيدة الشاربي هو حلقة امتداد للأسئلة الجوهرية المتفجرة من الحياة اليومية . سؤال يفضي لآ خر من قبيل تلك الأسئلة التي تتبع كلها من رحم سؤال واحد هام وضعه الفيلسوف اليوناني سقراط "كيف يغني للمرء أن يجيا؟" وصولا إلى أسئلة يطرحها العامة والخاصة كل بطريقته وحسب حدة الوعي " من نحن، بين صراع الحياة وهيمنة الموت؟.. كيف نسير بين المسافتين؟.. ما الذي يحدث؟؟ ولم؟؟..."

ويعود صوت سقراط مؤكدا:

"ما استحقت الحياة أن تعيشها إذا لم تتأملها جيدا!"

\* \* \*

إلى أي حد استطاعت رشيدة الشاربي تقف حيث لا بد للكاتب والقاص تحديدًا أن يقف أمام خضم الواقع؟ تتقلد وظيفة الفن المتمثلة كما يقول: أ.عادل خضر:

"...حمل الأفراد على أن يدركوا عالمهم من زاوية نظر مختلفة ومعابشته بعين المبدع لإكتشاف ما فيه من لاعقلانية واعتباط، أو ما فيه من ثراء وجمال"

وهي المسكونة بالهم المشترك (كما سيقع تفصيله لاحقا) الذي تنضح به كتاباتها منذ مجموعتها الأولى: "الحياة على حافة الدنيا" (2) متقلدة فعل الكتابة لا نشداننا للتسلية بل تعرية بحركة فنية للقبیح المقرح من علل المجتمع، بحس مرهف ورصد شفيف للواقع، هذا الواقع الذي تقول بشأنه الكاتبة على لسان أحد شخوص قصصها:

## "الواقع القاسي الذي يحشرنا فيه الآخرون لا يمكن للأفكار أن تجمله أبدا"

### بؤر الصراع:

يتمثل الصراع في قصص "سهيل الأسئلة" على واجهتين:

- صراع داخلي وجداني، عقلي.

- صراع مع الآخر قيمي وجودي.

يتنامى هذا الصراع عند الفرد غالبا في غمرة المجموعة وثنائيا في بعض المواقف . تتقلده شخوص تتميز بالتوتر، تنغل حركة في قلب الأحداث وفي بؤر من التوتر تختلف نسبيا من الخاص إلى العام. بطلنة قصة "دار العجائز" تعرض على مرأى ومسمع من الناس ، والأدهى أن بينها م الجيران إلى عملية نشل . تستميت في ملاحقة الفاعل قصد استرجاع ما انتشل منها من حلي ثمين، تحيطها دائرة من الفضوليين، وحالة مخزية من اللامبالاة والجبن.

في "كابوس الساعة القادمة" يتقد الصراع في حلبة توتر أخرى هي النفس البشرية أمام الطبيعة (الظاهرة: كسوف جملي يتم في واضحة النهار) يربطه الكثير بموعد القيامة . فيسكن الملح النفوس وتحت أسئلة العقل بشأن ما لا تحت سطوته وتوتر الذات البشرية الخائفة من مفاجات الغيب واللائذة إلى إيمانها بالمقدر، إذ أن قيام الساعة ويعني النهاية والموت حقيقة ثابتة في صدر المسلم يقابل كل هذا التوتر حلقة صراع تنطلق في الشطر الأخير من القصة من أجل الحياة، في لحظات يعيش فيها الناس هلعاً من نهاية الحياة (القيامة) لحظات حرجة مفعمة بالأسرار.

ففي ذاك الحيز الزمني تمب بطلنة القصة لمساعدة أم جاءت تطرق بابها تستغيث من أجل ابتها التي أصيبت بتوعك صحي مفاجئ. فتقطع صلاتها وتخرج إليها رغم اكفهرار وجه السماء وحالة الكسوف التي "تهدد" "بالعماء" كل من تطلع إلى السماء مسرح السر آنذاك ومصير البشرية قاطبة . تهرع البطلنة لنجدة الأم المفزوعة وتمضي بالبنت المريضة إلى المستشفى.

في "رحلة محسن الأندلسي" تتجلى حالة أخرى من الملح الجماعي توتر حاد من مجموعة عمال في مصنع، أصيب أحد أفرادها بفيروس الأيدز . تستوطن حالة من الخوف العام نفوس وملائه وأصحابه وكل من ربطته به وشائج قريبة . إلى أي حد يمكن أن يكون الفيروس الخبيث قد تفسى؟ يلح السؤال في السر وتطرحة الكاتبة ضمينا، ينداح بين أناس محكوم عليهم بالهلع في صراع بين أمل النجاة والعدوى.

فهل الكل "عليل" حتى تثبت سلامته في مجتمع سرت فيه فيروكات قاتلة؟

تمتد مشاهد الصراع حتى جوف التاريخ . عبر قصة تلك السنديانة تملك الجواب " تأخذنا القاصة إلى غابات الشمال وجبال خمير، و حياة البدو ونواميسه ا ونظمها ومظهر حياتها القاسية قساوة الصخر الصلد وكذلك ماسيها، ومنها مأساة الرجل الذي اختطفت زوجته في ظروف غامضة امرأة شاقبة جلية، امرأة خضراء من هذه الغابات " امرأة تحضن بذرة الحياة في حالة وحام تختفي فجأة وتبدأ مأساة رفيقها، يذرع من أجلها الدنيا بحثا عنها، مقتفيا كل أثر قد يأخذه إليها. وتبدأ رحلة المتاعب خلف عزيزة تاهت، خلف حقيقة مستعصية ضائعة، خلف حلم مغتال، خلف حرية سلبت فجأة في يوم أعبش.

يعيش الرجل المطعون وحا استطاع أهله الذين هبوا لموازرتة ونصرتة شيئا - حالة صراع مميتة بين الناس والخذلان والإصرار و الأمل يقول ص 89 :

محبوبة يا أم الضحكة الغضة والحنان الأسر أهب بقية عمري لأجلك ، أموت وأنا أحلم برؤياك، أقضي العمر تائها بين هذه الجبال الخرساء ولن يهدأ لي بال حتى أجدك وأتأر لك من أولئك الأوغاد الذين شردونا ورموا بنا في هذا العذاب."

تبدأ خيوط التوتر في قصة "كلمات بلا نافذة" من الجملة الأولى حيث تقول الرواية :

"دهشت حين رأيته للمرة الأولى بعد عشرين عاما" ص 99 .

كان طالبا يوم عرفته وهي في سن الدراسة وترك في ذاكرتها بصمة لم تكن بالبصمة العابرة

تمثلت في قاله لها ذات لقاء عابر ص 109 :

"اسمعي ما سأقوله لك جيدا، يوم تظلم الدنيا في عينيك وتنقل النفس بالأوجاع تذكرني أن الحياة ستبقى على الرغم من كل شيء جميلة وأن لا شيء أسمى من الحب، كافحي دون يأس من أجل حياة أفضل واجعلي الله حليفك".

وحفظت وصيته، والتقت به بعد سنوات، وغاب عنها أن الزمن يغير من الإنسان وحوله تلتقي به وعبثا تبحث عن ملامح الرجل الشاب الذي عرفته وتحدث إليه في عيادته وقد نسيها فتلمس لديه لهجة أخرى جعلت منه غريبا عنها . كانت طيلة زيارته تعاني اضطرابا وارتباكا وتوتر في محاولة عنيدة

للمقارنة بين هذا في الحاضر وذاك في الماضي، متأرجحة بين عديد الأسئلة تقول ص 110 :

"كيف لا تتذكرني وقد عشت في مخيلتي عشرين عاما كاملة كانت فيها كلماتك بوصلة لحياتي وكأها سر سرمدى لا يحويه الزمن؟ كيف تجهلني وقد صلبت على وصيتك؟..."

وتصاب بخيبة مريرة تجعلها تهوي من حائق وتنسى صاحب الوصية الذي يبدو لدى البطلة أذ ه غير مبال بقيم تظل عندها في المقام الأول.

في القصة التي مهرت بعنوانها المجموعة، منيت البطلة في أحداثها بخيبة أخرى . الحدث العادي، مما حدث لدى الأسر، حالة طلاق تعيشها امرأة غير أنها تعلق الأمل في عودة طليقها وتسيء الفهم يوم جاء ليحدثها بشأن أمر هام كانت تتصور أنه ليس سوري رغبته في العودة إليها ولطليقهما لكنه يحدثها بشأن اعتزامه الزواج من جديد ولكن بامرأة أخرى .

في ما تطرحه قصة "مناهة الأقبية العمياء" تشير الكاتبة إلى قمة انتهاك حرمة الجسد الإنساني الذي تضعه في صولهرقوية عرضة للقطط تعبت به وتنكل به نتيحة اللامبالاة. في باطن المشهد إشارة عميقة إلى المهانة التي أصبحت تلحق بالجسد البشري فتحيلنا الصورة إلى انتهاكات الجسد بشتى وسائل العنف ولا مبالاة الضمير العالمي . الملفت للنظر في مجمل هذه النصوص القصصية التي حوكتها المجموعة أن ضمير المتكلم امرأة عدا قصة "تلك السنديانة تملك الجواب" التي هي في الأصل حكاية ترويها بضمير مستتر امرأة من سير الأوائل.

#### استنتاجات :

إن المشهد العام للمضامين جعل شخصية المرأة هي البارزة وجعل شخصيتها عبر مواقف مختلفة تتأرجح بين السلبية المفرطة والإيجابية النموذجية، كما تبرز بعض المواقف صورة المرأة الضحية التي تعكس صورة مجتمع مازال فيه من النواقص الحضارية في أسباب التعايش بالمعروف. إن "سهيل الأسئلة" صفارة إنذار في راهن علاقات إنسانية واهية إن لم نقل مصرومة، كما يتضح - في ضوء ما تطرحه هذه المجموعة من مضامين - المنحى الذي تنتجه رشيدة الشارني انطلاقاً من مجموعتها القصصية الأولى كما وردت الإشارة في مستهل هذا: "الحياة على حافة الدنيا" وهو اهتمامها بالإنسان بمواجهه ومواجهه، بماسيه وهو في صراعاته الحياتية بين ترددي القيم والمجاهدة للحفاظ عليهنهلجا يشي بأن الكاتبة تؤمن بأن رسالة الأديب هي قبل كل شيء "تاريخ من لا تأريخ لهم" مدركة مسؤولية الكاتب أمام التاريخ والإنسان. هي ذي أهم تيمات هذا العمل القصصي الساخن في ما يطرح بلغة عودتنا عليها رشيدة الشارني التي لا تنجح إلى الزحرف رغم نفحات من الشعرية جاءت لتكسر المناخ العام المتوتر في بعض القصص.

فضاءات "صهيل الأسئلة" مفتوحة على شرايين الحركة في عالم الإنسان المادي والروحي ترصد فيها صراعاته المختلفة في محيط غير ضيق ضمن المجموعة: في الشارع بكل ما يحويه من عناصر، في المصنع بكل ما فيه من خصائص، في المستشفى والعيادة، في البيت والعالم الأسري بكل زواياه، في الجبل وال "الدوار"

تبدو القصص القصيرة من إمضاء رشيدة الشارني قصصا طويلة نسبيا، كما يلاحظ هذا في بعض المجموع القصصية الصادرة حديثا وهذا يفند ما ذهب إليه بعضهم أن مستقبل القصة هو القصة البرقية.

ففي هذا الشأن يرى الأديب نجيب محفوظ (3) أن إيقاع العصر يؤثر في الشكل الأدبي (حيث "الرواية أضحت أقل حجما وهذا الحجم يتضاءل أكثر فأكثر مع الأيام، القصة القصيرة تقصر والقصيدة تنتج نحو المقطوعات" أما الروائي عبد الرحمن منيف صاحب ثلاثية "أرض السواد" (4) (قراءة الألف وأربعمئة صفحة) أن النص السردي المطول لا يقضي عليه إيقاع العصر الألف إذ يقول: ". حتى في أوروبا نجد أن الرواية الكبيرة ما تزال تحتل مساحة كبيرة وتلعب دورا مهما رغم الادعاء بأن إيقاع العصر قد تغير".

هوامش:

1- المجموعة القصصية الثانية للمؤلفة رشيدة الشارني والفائزة بالجائزة الأولى في القصة القصيرة لأندية الفتيات الشارقة سنة 2001/2000 دار المسار للنشر 160 ص الشارقة وقد صدرت المجموعة نفسها في طبعة ثانية عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت 2002 وأعيدت لها قصة "الله يجيني يا كريدو التي حذفت من طبعة الشارقة لأسباب تتعلق بتعليمات النشر هناك.

2- المجموعة القصصية الأولى الفائزة بجائزة زبيدة بشير لسنة 1997 الصادرة عن دار المعارف للطباعة والنشر 158 صفحة .

3- حوار نشر في مجلة الملاحظ بتاريخ 21 أوت 2002 العدد 488

4- رواية في 3 أجزاء صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع .



